تجليات الألم في شعر بدر شاكر السياب

د.حنان بومالي.
المركز الجامعي بميلة.

الملخص:

يعد بدر شاكر السياب أحد أهم أقطاب الشعر العربي المعاصر، حيث يقف المتلقي لخطابه الشعري عند معالم حياته الواقعية والذاتية والسياسية سواء بصورة مباشرة أو بطريقة يوحي بها إليها؛ فلا يمكن عند قراءة مدوناته الشعرية إلا أن تحيلنا على ذاته وتجاربه وحضور الألم فيها، ثم إن نصوصه الشعرية تجسد الكثير من تجليات الألم والحزن والضياع والغربة في تجربته الحياتية. والحقيقة أن الخطاب الشعري السيابي يغري بتتبع هذه الظاهرة والوقوف عندها، لأنه وثيقة من الدرجة الأولى لوقائع حياته الشعرية والشعورية والإنسانية، ولعل هذه المقاربة أن تبسط تجليات الألم وحضوره في المدونة الشعرية للسياب.

نص المقال:

انقضت النكبة الفلسطينية على عالم عربي لم يكن قد اكتشف نفسه بعد، ولا تعرف على أبعاد فجيعته الحقيقية فكان أول إنجاز بعد النكبة هو تحرير العقول والنفوس من الجهل بالذات، وكان الشاعر العربي من جيل الشباب أول من أدرك بحدسه وعمق وجدانه أبعاد المأساة العربية، ولهذا تعد فترة الأربعينات مؤشرا سيميائيا هاما في الشعر العربي لأنها كشفت عن تراجع واضح للشعر العربي القديم بعدما وصل إلى حالة من الانسداد والتوتر والقلق طال الشكل والمضمون معا.

لم يكن الشعر السابق للنكبة بريئا من القلق وصراع القيم، غير أنه بعدها دخل في صراع حاد مع نفسه ومع القيم الإنسانية حوله أعنف بكثير من أي صراع سابق، ووصل فيه الشاعر إلى درجة عظيمة من الإقدام والمغامرة وحتى يتحقق له

ذلك لابد أن يكون أكثر من مجدد لنفسه وللفن، وأن يتحدث لصالح أمته وأن يتصل في الأحيان الصاعدة وأن يهز مفاهيم العالم من حوله، ويتنبأ له بما غاب عنه.

فكانت هذه الفترة فترة إنكار ورفض على كل صعيد، خاصة وأن جراح الأمم الكبيرة قد بدأت بالاندمال فكانت حقبة تحول جديدة تعلن عن نفسها: فما« أن حقق الحلفاء انتصارهم حتى سارعوا إلى اقتسام غنائم الحرب التي لم تكن شيئا آخر سوى الدول الصغيرة المجردة من الحماية وخصوصا أقطار العالم الثالث، وفقا لهذا الاقتسام، كان على العراق أن يظل في منطقة النفوذ البريطاني »[1]

ونظرا لتمرد الشعب العراقي وانتفاضته المتكررة ضد النفوذ البريطاني وضد النظام العراقي الذي فرضته حتى يؤمن مصالحها في العراق، فإن الوعي لدى الأجيال الصاعدة لم يتوقف، وخصوصا تلك المتعلمة في المدارس والجامعات التي كانت على صلة بالفكر الليبرالي والثوري في الغرب.

إلى هذه النخبة المثقفة ينتمي شعراء الطليعة في العراق هؤلاء الشعراء الشبان الذين كانوا يرمزون إلى تمرد الشعب العراقي على البؤس والتسلط والحرمان والقهر المفروض عليهم، وحتى في مطلع التجريب الحداثي حدد بعضهم موقعهم إلى جانب روادهم الذين كانوا أكبر سنا منهم نذكر أسماء:[2] بلند الحيدري، شاذل طاقة، رزوق فرج رزوق، نازك الملائكة، عبد الوهاب البياتي، بدر شاكر السياب... هذا الأخير الذي يمثل أهمية استثنائية في مستقبل الحركة الشعرية المعاصرة.

إنه الشاعر الذي قذف بنفسه في التجربة الشعرية الجديدة بلا تحفظ ولا تردد، فانصهر قلقه الشخصي في البؤس الجماعي ونضال الشعب من أجل تحقيق آماله وتطلعاته، واستطاعت أعماله الباكرة أن تشرق بالأمل وأن تهيمن عليها رنة

---

[1] – كمال خيربك: حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر. ط2. دار الفكر: بيروت. 1986.ص41.

[2] – المرجع نفسه.ص45.

الفرح الواثق بمستقبل الإنسان المكافح؛ لأن عقيدته الثورية كانت تشير إلى حتمية الانتصار في النهاية.

غير أن هذا الحس الثوري في شعر السياب اتخذ مجرى مأساويا يتحدث عن صراع الإنسان المعاصر في العالم العربي، وتحكم قوي القسر والإرهاب فيه، حتى غدا العذاب والألم والموت والاغتراب في شعره أشياء أليفة وأصبح القلق المهيمن على شعره مصيريا.[1] بل أضحى الألم والوجع والسوداوية سمة ملازمة لشعره.

لا غرو أن لنشأة السياب دور بارز في هذه السمات التي لازمت قصائده وطبعتها بصفة القلق والتوتر شكلا ومضمونا، لأن معاناة الحرمان والوجع ترخي بثقلها على الإنسان المقهور، فيسعى إلى تحقيق ذاته، بدافع التعويض وطلبا للمساواة بالآخرين... ولم ينعم السياب منذ طفولته المبكرة بحياة هنيئة، فكان عمره سلسلة من المآسي، بدأت بموت أمه وتتالت الأحداث المؤلمة عليه شديدة الوطء، فعاش في خيبات متتالية تركت أثرها البين في شعره.

ثم إن شرنقة العذاب التي عاش في داخلها متقوقعا على ذاته، ضيقت عليه الدنيا، وسدت في وجهه منافذ النجاة فلم يتمكن من الذوبان في التجربة الإنسانية الكلية بل ظل يهوم في الأجواء القريبة نازف الجرح، مهيض الجناح، تنهكه غربته الداخلية ومشاعره المتقلبة المبهمة، وأربكته أوجاعه، بقدر ما فتقت شاعريته.[2]

فجاءت قصائده إيقاعات صوتية ناضحة بالكآبة، تتنزى حروف كلماتها وجعا يتآكله صدأ العذاب، ويغلفها اليأس والوجع، ولاسيما بعدما أيقن أن أمه لن تعود،

---

[1]– سلمى الخضراء الجيوسي: الشعر العربي المعاصر تطوره ومستقبله. مجلة عالم الفكر. مج 4. ع2. يوليو .أغسطس .سبتمبر1973.ص34.

[2]– أنطونيوس بطرس: بدر شاكر السياب" شاعر الوجع ".المؤسسة الحديثة للكتاب: طرابلس– لبنان .ص12–13.

وأن البحث عن ملامحها في وجوه النساء لن يسفر إلا عن قسمات توحي بالرياء والاستهتار والتنفور:

كأن طفلا بات يهذي قبل أن ينام:
بأن أمه التي أفاق منذ عام
فلم يجدها، ثم حين لج في السؤال
قالوا له: بعد غد تعود[1]

يزداد طلبه لها والرغبة في رؤيتها عندما يرى أترابه وهو يلهو معهم لينسى عذابه وقلقه، يتبادلون النظرات ويتهامسون عن قبرها في جانب التل:

وإن تهامس الرفاق أنها هناك
في جانب التل تنام نومة اللحود
تسف من ترابها، وتشرب المطر.[2]

يعود إلى دوامة الحزن والانقباض مصدقا أكاذيب رفاقه وتزهاتهم متخيلا أمه تستاف تراب القبر من شدة جوعها وتروي عطشها بشرب ماء المطر النازل على قبرها.

على الرغم من هذه الصور الكئيبة السوداء للماضي، وأيامه المليئة بالمآسي العذاب، إلا أن السياب يحب النكوص إليه، لأنه يحتضن ملامح وجه الأم الغائبة عنه:

عشرون قد مضين، كالدهور كل عام
واليوم، حين يطبق الظلام
واستقر في السرير دون أن أنام
أحس بالدماء والدموع، كالمطر.
فيدلهم في دمي حنين

---

[1] – بدر شاكر السياب: الديوان" أنشودة المطر". دار العودة: بيروت.1989.مج1. ص475–476.

[2] – المصدر نفسه.ص476.

إلى رصاصة يشق ثلجها الزؤام.
أعماق صدري...[1]

يختلط الماضي بالحاضر، وتستيقظ الذكريات في ديناميس نفسه المضطربة الهاربة من رعب المستقبل المبهم، وتصطبغ عنده الرؤى بلون الدم والدموع فيتمنى الموت، لأنه عودة إلى رحم الأرض أو رحم الأم.[2]

ولما كان السأم أحد عناصر الموت أو هو المقدمة التمهيدية إلى المصير البشع والأدهى أن المقدمة أكثر بشاعة من النتيجة، فإن بدرا غرق في نهر الحزن والسويداء، وبات عاجزا عن تحمل أي صدمة عاطفية، واختلطت عنده جراح الطفولة بجراح المراهقة والشباب والرجولة:

أمس جاء الموعد الخاوي، وراحا،
يطرق الباب على الماضي... على اليأس... عليا !
كنت وحدي... أرقب الساعة تقتات الصياحا.
وهي ترنو مثل عين القاتل القاسي إليا.[3]

يستحضر السياب ذكرى موعد المحبوبة على الشاطئ فتكون رؤيته ضبابية باهتة وقد جاء الموعد وراح، لكن شيئا لم يحدث لأنه موعد خاوي يحمل معنى السطوة والإرادة الفاعلة، فهو يطرق على الماضي ليفتح بابا مغلقا، ويوقظ مرارة نائمة في الذاكرة.

لقد جسد الماضي في باب يطرق، ثم أخترق الموعد الخاوي باب الماضي إلى الباب الذي يليه، باب اليأس من عودة اللقاء ليصل في النهاية إلى الباب الثالث باب الشاعر فهو المطروق عليه الأخير، إذ الموعد الخاوي الذي مر بالأمس شكل

---

[1]– المصدر نفسه " النهر والموت "..ص455–456.

[2]– أنطونيوس بطرس: بدر شاكر السياب" شاعر الوجع ".ص16.

[3]– بدر شاكر السياب: الديوان " أزهار وأساطير ".ص1–4.

هاجسا يقرع عليه ماضيه، ليفتح له الباب إلى يومه من خلال الذكرى المفجعة فيستسلم لحدة الألم المتأتي من تلك الذكرى، وهو في الحال يأس وترقب وملل أمتد حتى الصباح.[1] ليختل بذلك التوازن العاطفي لدى الشاعر حيث الإخفاق في الحب والإخفاق في البحث عن المرأة التي تملأ الفراغ العاطفي.

هذا الإحساس الذي لم يفارقه لحظة، بل جعله دائم التطلع إلى التحقق مع المرأة التي تنأى عنه وقلبه مضطرم، ونار الحب تتقد لتفجر الطاقات الكامنة في ذاته حتى إنه ليكشف من خلال الصور المتنامية جو القيامة والبعث:

وكأن بعض الساحرات
مدت أصابعها العجاف الشاحبات إلى السماء
تومي إلى سرب من الغربان تلويه الرياح
فكأن ديدان القبور
فارت لتلتهم الفضاء وتشرب الضوء الغريق
وكأنما أزف النشور.[2]

يتحول الحب السيابي من كونه وجودا إلى الموت الذي يمارس سطوته، وتصبح الذات رهينة التجاذب مع الأخر في ظل التحول في حقيقة الحب، وربما يصل هذا التحول إلى رغبة في التملك.[3] كبديل موضوعي للتخفيف من إيقاعات الغربة والتساؤل ومحاكمة الذات التي تتقد نكرانا وتمزقا وتقريعا وتتفجر قلقا وعذابا وإدانة.

تبنى الشاعر هذا الموقف التشاؤمي السوداوي من المرأة ومن الحياة ومن كل الوجود، لأن حياته لم تكن رتيبة مستقرة، بل متقلبة ومضطربة، لم يذق فيها طعم

---

[1]- ايمان محمد أمين الكيلاني: بدر شاكر السياب" دراسة أسلوبية لشعره".ط1. دار وائل: عمان.2008.ص25.

[2]- بدر شاكر السياب: الديوان" حفار القبور".ص544.

[3]- عبد الناصر هلال: تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر ط1.مركز الحضارة العربية: القاهرة.2005.ص97.

الطمأنينة والسكون وواجه الشدائد والصعاب وظل يعاني صراعا داخليا حين وعى الحياة ورأى نفسه قبيح المنظر « قصير القامة، ضعيف البنية، أسمر البشرة، ذا شعر كثيف أسود فاحم، وكانت أذناه كبيرتين وبارزتين إلى الجانبين، كأنهما يدا إبريق... وكانت ذقنه الصغيرة الحادة، تحت أنفه الطويل تبدو مثل نقطة تحت علامة التعجب!»[1].

وبديهي أن المنظر الخارجي للإنسان يؤثر في الرائي الذي تترك نظراته صدى بعيدا في النفس و« كان هو يشعر بهذا »[2] ولاسيما حين رأى الفتيات ينفرن منه، وهو أحوج ما يكون إلى واحدة منهن تعيد إليه الأمل وتغير رتابة أيامه، فلم يجد إلى ذلك بد إلا الطبيعة التي شكا إليها يأسه وأوجاعه:

النجم غاب وسوف يشرق من جديد، بعد حين
والجدول الهدار... هينم ثم نام
أما الغرام_دع التشوق يا فؤادي والحنين![3]

استعاض بالطبيعة ليخفف من الإحساس بدمامة الخلقة والدونية وبالغربة التي غمرته بعد موت والدته وزواج أبية ونفور النساء منه، بيد أن هذه العوامل أسهمت من جهة أخرى في انضاج موهبته الشعرية، وسمت بها تعويضا عن شعوره بمركب النقص.

فبقي الشعر متنفسا لبدر من عذاباته النفسية والاجتماعية والسياسية والفكرية، لأن «الشعر لمعة خيالية يتألف وميضا في سماوة الفكر، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة

---

[1]– عيس بلاطة: بدر شاكر السياب "حياته وشعره". ط3. دار النهار. 1981. ص29.

[2]– حسن توفيق: شعر بدر شاكر السياب "دراسة فنية وفكرية". ط2. دار أسامة: عمان. 2009. ص126.

[3]– بدر شاكر السياب: الديوان "في القرية الظلماء". ص93.

القلب فيفيض بالألائها نورا يتصل خطه بأسلة اللسان، فينفث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك، ويهتدي به ليلها السالك ... »[1].

يضاف إلى موهبة الشعر شخصيته التي لم تكن قط في أساسها قابلة لاحتمال ذلك الانضواء المطمئن في أحضان العقائدية المؤمنة، والتي قادته في فترته الماركسية إلى تصوير الفاجع من غرق العراق في الركود الاقتصادي، وتلاحق المحن من إعدامات وإضرابات وتظاهرات وانتشار الفقر والجوع، وتخليه إلى حين عن قضاياه الذاتية والانصراف إلى القضايا الاجتماعية والسياسية.

وجاءت قضية فلسطين تصب على النار زيتا وبخاصة بعد معاهدة "بورتسموث "فجعلته يشارك في التظاهرات ليعتقل غير مرة، ثم يفر إلى إيران والكويت حيث عانى مرارة الغربة والفقر والبعد عن عائلته فزاده ذلك وجعا على وجع، وتحاورت جراحه الذاتية وجراحات أبناء وطنه في مؤاخاة إنسانية:[2]

بعد أن سمروني وألقيت عيني نحو المدينة
كدت لا أعرف السهل والسور والمقبرة:
كان شيء مدى ما ترى العين،
كالغابة المزهرة،
كان في كل مرمى، صليب وأم حزينه
قدس الرب ! هذا مخاض المدينة.[3]

وجاء الصلب خاتمة للأوجاع، وإيذانا ببدء عهد جديد وإن سبقه اضطهاد وتعذيب وجوع:

---

[1]– يوسف حسن نوفل: أصوات النص الشعري. ط1. الشركة المصرية العالمية للنشر: لونجمان. 1995. ص8.

[2]– أنطونيوس بطرس: بدر شاكر السياب "شاعر الوجع". ص69.

[3]– بدر شاكر السياب: الديوان "المسيح بعد الصلب". ص462.

... وأنصت: كان العويل

يعبر السهل بيني وبين المدينه

مثل حبل يشد السفينه

وهي تهوي إلى القاع، كان النواح

مثل خيط من النور بين الصباح

والدجي، في سماء الشتاء الحزينه[1]

ينسي في منحنى رمزي الحالة المزرية التي عمت أرض العراق جراء القتل والاعتقالات والتعذيب و« الرمزية اتجاه خاص يأخذ طريقه في الأدب والفن »[2] ويشغل حيزا في قصائد السياب التي تقدم لقطات حادة متواترة مملوءة نداء ونكبة وثورة وتمردا.

وتكشف ملامح الصراع الوجودي الإنساني" الفردي والسلطوي " خاصة وأن الشاعر عاش مراحل سياسية متغيرة أكدت نفسها في مراحله الشعرية، التي بدأت بالانكسار الذي شاهده في فترات يقظة من سني عمره حين اجتاحت القوات البريطانية وطنه وأعدمت قادة الثورة.

هذي خطا الأحياء بين الحقول

في جانب القبر الذي نحن فيه

أصداؤها الخضراء

تنهل في داري

أوراق وأزهار

من عالم الشمس الذي تشتهيه

---

[1] – المصدر نفسه.ص457.

[2] – عزيز السيد جاسم: دراسات نقدية في الأدب الحديث. الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة. 1995.ص105.

شلال أنوار

فالنور في شباك داري وماء.[1]

يكابد الشاعر ما يكابده الموتى من ظلام ومحاصرة، وتبلغه أصداء خضراء تسري فيها الحياة في أوحال الوطن كله، كما يسري النماء في شرايين الزهر وهي أصداء بيضاء يعلو فيها صوت الإيمان بقيمة الإنسان، ويضرع فيه الحق السليب جدار العبودية، ثم هي حمراء تمتزج فيها أنوار الحرية الهادرة بدماء الضحايا الذين يزرعون الخصب بالثورة والحرب.[2] إلا أنه يشعر بالألم والموت في وطن يعاني ما يعانيه وقد اشتد لهيب الحرب العالمية الثانية، والعراق يعاني من ويلاتها مثله مثل الأقطار العربية الأخرى:

أهذا أدونيس، هذا الحواء؟.

وهذا الشحوب، وهذا الجفاف؟.

مناجل لا تحصد،

أزاهر لا تعقد،

مزارع سوداء من غير ماء.[3]

هكذا تتسع مساحة حقل الألم الدلالي في ألفاظ(الحواء، الشحوب، الجفاف، المزارع السوداء) التي ما هي إلا امتداد أو انعكاس لما في داخله من حزن ويأس وألم وصورة صادقة لتفاعله مع الأحداث الوطنية التي خلقت منه شابا وطنيا له إيديولوجيته السياسية الخاصة.

---

[1]- بدر شاكر السياب. الديوان "رسالة من مقبرة". ص389.

[2]- إيمان محمد أمين الكيلاني: بدر شاكر السياب "دراسة أسلوبية لشعره". ص29.

[3]- بدر شاكر السياب: الديوان "مدينة السندباد". ص464-465.

وفي ظل الظروف السياسية المتأزمة التي يمر بها وطنه وأمته العربية تحولت رؤى الأشياء إلى موت، بل إن الموت هو الرؤية الخاصة التي تفسر وجوده في رحاب الصراع، ويمارس سطوته بوصفه انهيارا سياسيا، وينشر أشرعته في كل حدب:

وأرسى الأخطبوط فنار موت يرصد البابا،
سجا في عينه العوراء صبح كان في الأزل...
تهزأ بالزمان، يمر ليل بعد ليل وهو ما غابا
ففيم غرور هذا الهالك الإنسان، هذا الحاضر المشدود بالأجل.
أعمر ألف عام؟ ليته شهد الخلائق وهي تعبر شرفة الأزل!
ألا ليته شهد السلاحف تسحق الدنيا
قياصرها، ويمنع درعها ما صوب الزمن
إليها من سهام الموت !
لكن الذي يحيا
بقلب يعبر الآبار، يكسر حدة الوهن
هنالك ألف كنز من كنوز العالم الغرقي
ستشبع ألف طفل جائع وتقبل آلافا من الداء
وتنقذ ألف شعب من يد الجلاد لو ترقى
إلى فلك الضمير ![1]

يكشف بدر أوراق الموت من خلال الطاغية الأخطبوط الذي يمد يده ليسحق براعم الوجود الحقيقي، وينكسر الإنسان في سرعة خاطفة تزوي به الأقدار إلى الفناء، وتؤدي به إلى الانهيار الذي يخلق أفقا معتما وواقعا عدميا تنمو في أرضه الكآبة.[2]

---

[1]- بدر شاكر السياب: الديوان "المعبد الغريق". ص178.

[2]- عبد الناصر هلال: تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر. ص30-31.

لقد وقع العراق فريسة لسياسة القهر والتآمر تتناثر فيه أشلاء الأحياء وتبدو رؤية العالم من خلال منظور الدم الذي يغطي سطح المدينة، وتتراءى القبور التي تزخر بالأحياء:

الليل يطبق مرة أخرى فتشربه المدينه
والعابرون إلى القرار مثل أغنية حزينه
وتفتحت كأزاهر الدفلى مصابيح الطريق
كعيون ميدوزا تفجر كل قلب بالضغينة
وكأنها نذر تبشر أهل بابل بالحريق.[1]

إنها مقدمة ترسم أجواء أسطورية من الحزن والبؤس في هذه المدينة التي يتحول كل شيء فيها إلى شقاء يبشر بالدمار وبالحريق الذي سيعم أهل العراق جراء الواقع السياسي، وينبئ بالانهيار والتهدم والسقوط الذي آل إليه وطنه الذبيح.

يتيه السياب في دروب بابل الحزينة بين أشلاء جثث الضحايا وبرك الدماء، لتزداد مواجعه وآلامه وهو يحس بشاعة استغلال الأغنياء للفقراء، وقسوة الفقراء نتيجة ما يعانونه في دهاليزها الصلدة من متاعب ومصاعب في سبيل انتزاع لقمة العيش[2] فيرجع إلى الوراء بحثا عن زعيم فداء يزرع الأمل في قلوب المظلومين والفقراء، ويعيد البسمة إلى ثغور المضطهدين ويأتي بالخلاص:

نود لو أعادنا الإله
إلى ضمير غيبه الملبد بالعميق
نود لو سعى بنا الطريق
إلى الوراء، حيث بدؤه البعيد[3].

---

[1]- بدر شاكر السياب: الديوان "المومس العمياء". ص509.

[2]- حسن توفيق: شعر بدر شاكر السياب " دراسة فنية وفكرية ". ص54.

[3]- بدر شاكر السياب: الديوان "السندباد". ص464.

لكن صوته ضاع في برية الناس سدى، وتلبدت سماؤه بغيوم اليأس، يغضب ويثور على الوضع المتردي، ويصرخ صرخة مدوية ملؤها الوجع والغيظ عما كان يسود العراق آنذاك من مصائب وويلات من الناحيتين: السياسية والاجتماعية، إذ لم يرحم أحكام الشعب، ولم يهتموا بمعاناته وآلامه.

وما قصيدته " المومس العمياء " سوى تعبير عما كان حادثًا في البلاد التي تحولت إلى " مومس " عمياء يضاجعها الغريب، ويزرع المهانة والذل في صلبها، والمسئولون يتفرجون، كأنهم شياطين خرس، فيتساءل:[1]

لم تستباح وتستباح على الطوى ! لم تستباح ؟
الجوع ينخر في حشاها، والسكارى يرحلون[2]

ويشبه " حفار القبور " الذباب الذي يقتات من جراح الآخرين، لا حياة له إلا بموتهم:

أأظل أحلم بالنعوش، وأنفض الدرب البعيد
بالنظرة الشزراء، واليأس المظلل بالرجاء
يطفو ويرسب، والسماء كأنها صنم بليد
لا مأمل في مقلتيه ... ولا شواظ ... ولا رثاء.[3]

إنها المأساة الاجتماعية في البلد الفقير، حيث الحكام غافلون والشعب عاجز وبدر يعض جرحه ويرثي بلده وشعبه ونفسه، وقد « التحم الثلاثة في وحدة عضوية، فالألم واحد والجرح واحد والماضي واحد والسكين المنغرسة تدمي القلوب

---

[1]– أنطونيوس بطرس: بدر شاكر السياب "شاعر الوجع". ص71.
[2]– بدر شاكر السياب: الديوان "المومس العمياء". ص526.
[3]– بدر شاكر السياب: الديوان "حفار القبور". ص558.

والنفوس.»[1] فالمأساة التي يصفها جماعية والخلاص منها لا يكون إلا بالتكتل وتضافر الجهود واتحادها في صورة بطل منقذ همام في زمن القهر والظلم.

وإذا كانت اللغة هي البوابة التي يدلف منها النص إلى عالمه الرحب، فإن الدخول إلى عالم النص ذاته يبدأ من "العنوان" فهو « المفتاح الذهبي إلى شفرة التشكيل، أو هو الإشارة الأولى التي يرسلها الأديب إلى المتلقي »[2] فعنوان مثل " مدينة بلا مطر " الذي اختاره لإحدى قصائده في ديوان " أنشودة المطر " هو إشارة دالة على المكان بكل ما ينطوي عليه من دلالات ورموز، وكل ما يجري في ساحته من مآسي وعذاب وموت وقتل وخوف و...:

....«قبور إخوتنا تنادينا

وتبحث عنك أيدينا

لأن الخوف ملء قلوبنا، ورياح آذار

تهز مهودنا فنخاف، والأصوات تدعونا.

جياع نحن مرتجفون في الظلمة

ونبحث عن يد في الليل تطعمنا، تغطينا.[3]

وربما تكون قصيدة " الأسلحة والأطفال " الضربة السيميائية الهائلة في الديوان، لأن ثنائية الوجع والألم في تماس دائم معها، وقد ضاقت نفسه بتجار الحديد يجولون البلاد ويحملون الموت للأطفال:

لك الويل من تاجر أشأم

ومن خائض في مسيل الدم

ومن جاهل ما يشتريه

---

[1] – أنطونيوس بطرس: بدر شاكر السياب "شاعر الوجع". ص72.

[2] – فوزي عيسى: النص الشعري وآليات القراءة. دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية. 2008. ص11.

[3] – بدر شاكر السياب: الديوان " مدينة بلا مطر ".ص490.

-لذرئ الطوى والسرى عن بنيه-

قبورا يوارون فيها بنيه !

حديد عتيق

رصاص حديد

حديد عتيق لموت جديد![1]

لقد استحال العراق إلى مقبرة جماعية، تحفظ صور الدمار والاعتقال والاغتيال وأبشع المجازر الإنسانية، وهي المكان الذي يحفظ فضاؤها كل شيء مؤلم وموجع، إذ هي دال شامل ودائري على كل ما هو طارئ، قبر من لا قبر له، وموت من لا موت له، إنها «الوطن الوحيد المشاع للجميع، لكن الانتماء إليه انتماء خاطف ولحظوي».[2]

لم يجن السياب من مغامرته السياسية إلا الوجع والأسى والألم، وقد عمدت السلطات إلى إسكات صوته بالقمع والقوة والاعتقال والتعذيب داخل السجن، الذي يقول منه مخاطبا المسؤولين متهددا:

يا حابسين صحيفة الأحـــــرار	هل يمنع القيد استعار النـــار
إن تحجبوها فهي حق كامـــــن	بين الضلوع وصرخة استنكار.
والأرض ليس ترى لها من غاسل	رجس الطغاة سوى دم الثوار.[3]

السجن مكان يرتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم الحرية، وقد لا يكون السجن «مكانا محدودا له أبعاد جغرافية معينة، فقد تكون النفس هي السجينة داخل جسد

---

[1]- بدر شاكر السياب: الديوان "الأسلحة والأطفال ".ص570.

[2]- محمد صابر عبيد: المغامرة الجمالية للنص الشعري. ط1. عالم الكتب الحديثة: إربد :الأردن. جدارا للكتاب العالمي: عمان. 2008. ص61.

[3]- بدر شاكر السياب: الديوان "صحيفة الأحرار ".ص478-487.

لا يقوى على فعل شيء »[1] وهذا ما حدث مع بدر الذي لم تنحصر نقمته في السلطة، بل ارتدت عليه وتحولت إلى مازوشية حين لم يستطع أن يثأر من الظالمين:

بني إليك صدري، فيه فادفن وجهك الطفلا

بني صه أقص عليك ... أية قصة عندي ؟

تفجرت الفقاعة وانتهى أبد إلى حد:

علام أتيت للدنيا؟ ليدرك عمرك الليلا ؟[2]

وإذ يأخذ اليأس منه كل مأخذ، وتسد في وجهه كل دروب الأمل، تخمد في داخله نار الثورة، ويرجع إلى ذاته خالي الوفاض، ويصرخ كافرا بالقيم الإنسانية، لأنه ضيع سدى مرحلة من عمره، كان فيها يدافع عن حقوق المظلومين، فكانت النتيجة أنه نسي ذاته.

عاد إلى ذاته يعذبها ويتمنى الموت، غير أن الموت هنا حياة وولادة جديدة أو عودة إلى رحم الأرض (الأم) التي تحميه من غوائل الزمن وتشعره بأنه يمتلئ حبا:[3]

سحقا لهذا الكون أجمع وليحل به الدمار !

مالي وما الناس؟ لست أبا لكل الجائعين.

وأريد أن أروى وأشبع من طوى كالآخرين.

فليحلموا إن كانت الأحلام تشبع من بجوع.

إني سأحيا لارجاء ولا اشتياق ولا نزوع.[4]

لقد جرب بدر السياسة لينسى عذاباته الذاتية، فعاد والمعاناة أعمق، كأنه كان بحاجة إلى جرح جديد نازف يتفتق بجوار جراحه الكثيرة المزروعة في قلبه، ولم تستطع

---

[1]– حنان محمد موسى حمودة: الزمكانية وبنية الشعر المعاصر " أحمد عبد المعطي نموذجا ". ط1. عالم الكتب الحديثة: إربد:عمان. جدارا للكتاب العالمي: عمان. 2006. ص101.

[2]– بدر شاكر السياب: الديوان "نبوة ورؤيا ". ص166.

[3]– أنطونيوس بطرس: بدر شاكر السياب "شاعر الوجع". ص117.

[4]– بدر شاكر السياب: الديوان "المخبر ".ص342.

السيادة أن تنتشله من لجة ذاته، لأن حاجته إلى الحب مرضية نابعة من جوع نفسي.

هكذا نجد بدر شاكر السياب يمزق من جسم قصائده ثياب الألم والوجع والأسى ليخرج لنا حياة الغربة والجوع والإذلال والسجن من أجل الضمير الجمعي الفردي فهو الإنسان المظلوم، لأنه« كان أسير حالة نفسية معقدة، لم تسعفه ظروف حياته الصعبة على تخطي عقده والعيش كالآخرين، وكأن القدر كان له بالمرصاد، فما إن تلوح له تباشير السعادة من بعيد حتى يسرقها منه ويغتصبها اغتصابا ساحقا.»[1]

لقد عاش الحرمان من كل ما هو جميل منذ صباه، حتى إنه سمى نفسه " أيوب " لشدة ما لقي من الأهوال والمعاناة والمصائب، عرف إلى جانب قلقه النفسي الفقر والجوع ومرارة الغربة والخيبة، وجاءت الأحداث الخارجية لتزيد في شقائه وألمه، فتجعله غريبا عن نفسه وعن مجتمعه، وهو الذي أحب العدل والناس وسعى طوال حياته لإرسائه بين صفوفهم رغبة في الحصول على حب الآخرين وتفهمهم له.

لقد أعطى بلاده أجمل ما يمكن أن يعطيه شاعر، وآلمه مرأى الفقراء المعوزين الذين يعانون شظف العيش، وأحس برابط يشده إليهم لأنه لم يكن غريبا عنهم، كان يريد أن ينتقم لنفسه من الأغنياء بتفويض طبقتهم فشارك في الإضرابات والتظاهرات، ولم تثن عزمه الاعتقالات والعزل من العمل ومرأى قادة الثورة يشنقون.

---

[1]- أنطونيوس بطرس: بدر شاكر السياب شاعر الوجع، ص125